أنا موزع منشورات !؟ . . .

أتحدث هنا عن « الانتخابات » المعروفة فى مصر ، أتحدث عنها فى « ذكرياتى الأولى » بعض الشىء ؛ لأنى عاصرت بعضها حين كنت حديث عهد بالحياة . . . ذلك أن مدير المدرسة التى انتميت إليها فى حداثتى قد رشح نفسه كنائب فى البرلمان ، وكنت ساعتها فى السنة النهائية ، فرأيت الرجل يتخذ من تلاميذ مدارسه وطلابها — وقد كانت له مدارس كثيرة — جيوشاً للدعاية له والإشادة بفضله ، وعلى أكتاف هذه الجيوش حاز النصر المبين ، فنال به كرسياً من الخشب تحت قبة عُرفت بقبة البرلمان ، يستطيع أن يتربع فيه إذا عنّ له أن يفعل . . .

ووجد التلاميذ والطلاب فى مدارسه الابتدائية والثانوية فى هذا الترشيح فرصة طيبة للترفيه عن أنفسهم والهروب من عبء الدرس وضيق المدرسة ، فأخذوا يتجمهرون كل صباح ، ويمشون فى الشوارع زرافات زرافات ، يحتلون مركبات الترام ، ويهتفون للنائب العظيم ، ويدعون له ويشيدون بفضله فى خدمة العلم والتعليم ، وإذا سأم الصغار منهم نوع هذا الهتاف ألفوا بيتاً من الشعر الشعبى ، يسبّون فيه أمّ المرشح المنافس لمديرهم ، ويهزأون من شخصيته ، ويهتفون بخيبة أمله ومسعاه !

. . ويؤلف المرشح المحترم مظاهرة خطيرة من طلبته الكثيرين ، ينظم رؤساءها ، ويعيّن الهتافين فيها بجد واهتمام ، فتخرج المظاهرة كأنها البركان المندلع أو العاصفة الهوجاء ، تعطل السير وتوقف الترام ، وتربك حركة المرور ، وتثير الانتباه ، وتوقظ النائمين وتحمس الموجودين فى الشوارع والطرقات ، وتجتذب العائلات إلى المقصورات ، ويصعد الدم إلى جباه الجمهور ، فيهتز طرباً ويصفق فى حماس ؛ إذ يرى أبناءه أبطال المستقبل حاملين الأعلام والرايات ، صارخين بالهتاف ، مؤيدين بطل البرلمان : نصير العمل والعمال ، والعلم والمتعلمين . . . وهنا تمر سيارة فاخرة ، تضرب بوقاً هنا ، وتثير ضجة هناك . . . تلك سيارة المدير المرشح المحبوب ، تنساب به فى الدروب ، ليرى نظام المظاهرة وضجتها ومفعولها فى جباه الناس ، فإذا أحسّ به المتظاهرون ، زادت حناجرهم مداً وجزراً ، وارتفعت أصواتهم بالهليل ، وتضاربت أكفهم بالتصفيق ، واهتزت أيديهم بالأعلام ، وصاروا أشبه بجماعة الصوفية والمشعوذين ، حين يجمعون فريقاً من عامة الناس ، ويحملون الأعلام ويخرجون إلى عرض الطريق ، إحياءً لذكرى فقيد من شيعتهم أو تشييعاً لنعشه للقبر الأخير . . لا فرق بين هؤلاء وأولئك ، إلا من حيث الهتاف : هؤلاء يصيحون : الله . . الله ! ، وأولئك يتصايحون بيحيا فلان ، ومن حيث العدات والآلات : هؤلاء يحملون الطبول ، وأولئك لهم من كتبهم وكراساتهم ، يخبطون عليها بمساطرهم ، نِعمَ الطبول . . .

وجاء المدير يتفاوض مع ناظر مدرستنا ، وكان رجلاً يحب النظام والعمل ، حتى اتفقا على مشروع جديد . . . وجىء بنا نحن التلاميذ الكبار ، وأُعطى كل منا مجموعة ضخمة من الإعلانات المطبوعة فى صيغة دعوة لحضور حفل كبير ، يقيمه المرشح فى إحدى مدارسه ، يُشرب فيه الشاى ممتزجاً بالألبان ، وتوزع فيه صنوف الحلوى والكسرات على الحاضرين ، وبعدها يلقى المرشح عهده وميثاقه ، وقد طبعه أيضاً فى منشورات ، اطلعت على واحدة منها ، فألفيت دقة فى الأسلوب ، وسلامة فى الإعراب ، وتنسيقاً فى البنود والمواد ، وقرأت ميثاقاً لو تحقق بندٌ مما فيه ، لصارت مصر فى ظرف دورة برلمانية واحدة من أنظم وأروع دول العالمين . . . وقيل لنا بأن نمر فى الطرقات ونصعد المنازل المحترمة نوزّع فى كل شقة منها دعوة من هذه الدعوات ومنشوراً من هاتيك المنشورات ، وحُذِّرنا من الإهمال والتقصير . . .

* * *

... وخرجت إلى الطريق .. وفكرت فى الرجوع إلى المنزل بإعلاناتى ومنشوراتى ، أوزعها بين أدراج المكتب وسلة المهملات ؛ لتكون فى الأولى تحت طلبى ، أستعمل ظهور صفحاتها فى عمل الواجبات وتأليف الموضوعات ؛ ولتكون فى الثانية من نصيب « الكنّاس » ، يشترى فيها — إن راقته نظافتها — قليلاً من « اللبّ » أو بعضاً من البهارات ...

ولكنى تذكرت أننى أعطيت أنا الآخر « عهداً وميثاقاً » بين يدى الناظر والمدير ، كما فعل الآخرون ، بأن أوزع ما أستطيع من هذه الإعلانات والمناشير ، فلم أشأ أن أحنث فى عهدى ، فاستعنت بالله ، وتقدمت فى الطريق ...

وانتقيت منزلاً أعجبنى ، فصعدت إلى الطابق الأول ، أطرق باب شقة فى حياء .. فخرجت لى خادمة ريفية صغيرة ، أعطيتها الدعوة لتقدمها إلى سيدها حين يجىء .. ففغرت فاها فى بلاهة ، وحسبتنى من موظفى التموين — وكان التموين الشغل الشاغل للأسر والأفراد — وسألتنى : هل أتى القماش ، وهل زادت كمية السكر ، ومتى يوزع الزيت والكيروسين .. ؟ ! قلت لها : إن « كيروسين » البترول قد طُبع طبعة جديدة على نسق المنشورات ، وهاك كمية كبيرة منه .. ورزمتُ لها رزمةً من الورق ، وأسررت فى أذنها أن كل هذا من أجل « خاطرها » .. فصاحت طرباً ووثبت تعدو إلى سيدتها ؛ لتعطيها « الكيروسين » وتطرى لها سخاء المانحين .. وقبل أن تصل إليها ، كنت قد وصلت إلى عرض الطريق « أوزّع » فى جوه بعضاً من البسمات وآخر من الضحكات ..

وانتقيت بعد ذلك منزلاً طويلاً يليق بالمقام ، صعدت فيه ، حتى راقنى أحد أبوابه .. فطرقته فى هدوء .. وما هى إلا لحظة حتى فتحت الباب سيدة على قدر كبير جداً من الجمال وخفة الدم ، فغرت لها فاهى دون كلام .. ومرت لحظة قالت فيها : نعم ؟ ! .. أهلاً وسهلاً ؟ ! .. فصحوت وقدمت لها الدعوة ، فقرأتها على عجل ، ثم ابتسمت ، وربتت على كتفى ، حتى حسبت أنه ذابَ ، وقالت : تفضل .. فتمتمت شاكراً .. فأمسكت بذراعى تكرر الدعوة وتقول : تفضل فإن لدينا لك عروساً جميلة كالقمر ، ولا نعطى القمر إلا للقمر .. وأطرت ملامحى ، ثم أخذت فى الإعجاب بطلعتى ، وهى تجذبنى برشاقة وابتسام ، فانفلت من يديها البضتين شاكراً متضرعاً . وأنا أقول : « لا .. لا .. أنا فى عرضك » ..

ونفدت بجلدى إلى الطريق ، أشدّ فى عرضه « نَفَساً » طويلاً من الهواء ، وأجفف بمنديلى على جبينى بعض القطرات .. ومشيت حتى وصلت منزلى .. وهناك أشعلت شعلة هائلة فى الدعوات والمناشير .

وأقسمت بعدها ألا أوزّع دعوات أو منشورات ولو دخل الجمل فى سَمِّ الخِياط ..

وقد كان .. ! !

(مصر) أحمد طه السنوسى

صــــلاة ...

لفيلسوف الهند طاغور

إننا فى تعاسة وشقاء لأننا مخلوقات تأسرها النفس وموحياتها ..

تلك النفس الضيقة الثائرة التى لا تبعث من ضوء ، ولا تاج إلى اللانهاية بابا ..

إنها ليست ذلك التوقيع التى تهتز أوتاره فتبعث بموسيقى السرمد والأبد .. وإليك تنهدات الجزع ... ومتاعب السقطات .

والأحزان الممضة على ما فات ، والإشفاق مما هو آت ..

فإن كل هذه الأشياء تلقى بأفئدتنا فى يم من الرعب والخوف .. لأننا لم نعثر بعد على أرواحنا .. ولأن ذلك الروح الذاتى المتجلى ، لم يتجل بعد فى حياتنا الباطنة ..

ومن هنا اندمجت فى مراسمنا تلك الصيحة القلبية التى نقول فيها : « أيها الواحد الجليل المهيب امنحنى ابتسامة غفرانك وصفحك فى كل وقت وآن .. » .

إن إشباع اللذائذ النفسية والشره الذى لا تقنع نهمته ، والكبرياء .. والاستجماع .. وإسفاف القلب نفوراً وجفافة . كل هذه أشياء تخفى من ورائها أكفان الموت والفناء .